



## المواطنة... الفطرة والانتماء



المواطنة هي الهوية الثقافية للفرد، ولأهل مجتمع الأمة التي تميّزه بسمات وخصائص عن مواطني أمة أخرى. فالمواطن العربي يستمدُّ من خصائص شخصية أمته مكونات ثقافية تتمثل بالإيمان والفكر والآداب والإجتماع والفنون والأعراف وغير ذلك، وهذه الخصائص للمواطن العربي والمسلم تميّزه عن مواطن آخر من قومية أخرى. والمواطنة في أساسها التعددية؛ أي أنّ المواطنين في أمة يكونون متنوعين المعتقد والاهتمامات والفكر السياسي والمفاهيم الاجتماعية، ولكن هذه التعددية تجعلهم يتكاملون في إطار المواطنة الصالحة، وبذلك يكون في مرتكزات المواطنة قبول الشريك في الوطن والتأسيس لعيش مشترك.

نصل من ذلك إلى القول: إنّ المواطنة هي وحدة الولاء، ووحدة الانتماء من قبل كلّ المكونات السكانية لأهل البلد، أو الأمة، فالوطن يحتضنهم جميعاً. والمواطنة تقضي كذلك التزام منظومة القيم الأصيلة في الأمة، وهذا معناه عدم قبول أيّ وافد لا يتناسب مع شخصية الأمة. كما أنّ المواطنة توجب الالتزام والمسؤولية، والاستعداد لأداء الدور من قبل الأفراد والجماعات بما يُعلي من شأن الوطن، ويشيد ببناءه على أساس العزة والكرامة. إنّ كلّ إنسانٍ سويّ يولد مفطوراً على حبّ وطنه والتعلق به، لأنّه تربى بين جنباته، وتقوّت من ثمراته، وروى ظمأه من مائه وتشبعت شخصيته بمنظوماته القيمية، وحمل هويته الثقافية.

حبّ الوطن تعبيرٌ عن الوفاء عند الإنسان، وهو موقفٌ حكيمٌ يعبر عن شخصية مستقيمة صالحة تعلم أنّ الوطن هو الكرامة وفي رحابه تتوافر للإنسان الحرية والعدالة والعزة. ولقد عبّر المؤرخ العربيّ المسعودي خيراً تعبيراً عن الوطنية، حين قال في كتابه: «مروج الذهب»: «وقد ذكرنا الحكماء - فيما خرجنا إليه من هذا المعنى - أنّ من علامة وفاء المرء، ودوام عهده، حنينه إلى إخوانه، وشوقه إلى أوطانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه، وأنّ من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقةً وإلى مسقط رأسها تواقفةً.

وقال ابن الزبير: ليس الناس بشيءٍ من أقسامهم أفتح منه بأوطانهم. وقال بعض حكماء العرب: عمّر الله تعالى البلدان بحبّ الأوطان.

وفكرة المسعودي هذه هي الفطرة التي أكدها الإسلام، والأنموذج هو: عندما اشتدّ الأذى على الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة، كانت هجرته مع صحبه إلى المدينة، وعندما أخرج من مكة المكرمة خاطبها قائلاً: «ما أطيبك من بلدة، وأحبك إليّ، ولولا أنّ قومك أخرجوني ما سكنت غيرك». (أخرجه الترمذي في السنن والحاكم في المستدرک).

هذا الحنين إلى مكة يعبر عن مستوى رفيع من الحنين إلى الوطن ومن التزام خطّ المواطنة الصحيحة، فهذا الارتباط بالوطن الذي تترجمه وطنية مشبعة بمفاهيم الإيمان والوفاء، والقيم والحضارة، والالتزام السليم، ظهرت كذلك عند أتباع الإسلام منذ عهد النبوة حيث انتسب كثير منهم إلى بلده فقيل: بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي. أو انتسب بعضهم إلى قومه حيث قيل: أبو ذر الغفاري. وعندما يسير الباحث مع التاريخ العربي والإسلامي متابعاً يجد أنّ العلماء من اختصاصات عدّة قد انتسبوا إلى موطنهم وبلدانهم ولم يعب عليهم أحد ذلك، فهناك مثلاً: الحجازي، والمصري، والمغربي، والأندلسي، والدمشقي، والبغدادي، والأصفهاني، والرازي، والبخاري... تأسيساً على ما تقدّم يكون الانتماء إلى الوطن أصلاً وفطرة في كلّ إنسان ولا يُنكره إلا معاندٌ أو أحمقٌ أو متكرّ خائنٌ لانتمائه.

أ. د. أسعد السحمراني

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية - بيروت